الدنيا حلوة

الألوان تجلب البهجة وتدر ذهبًا:

لم تعبر فرشاة جاشوا رينولدز عن تعاسة، ولم تغمس فى ألوان الشقاء، لأنه لم يعان فى حياته تعاسة، ولم يلق شقاء، لم يعرف إخفاقًا أو شظف حياة، كان ناجحًا منذ البداية، ولهذا لم يتحدث فنه إلاَّ عما يعرفه، عن لحظات السكينة والسعادة، وكان الفنان فى ذلك صادقًا مع نفسه كل الصدق.

كان أبوه مدرسًا فقيرًا يعمل بمدرسة بلايتون، وهى قرية فى غربى إنجلترا. واجه ذلك المدرس الفقير العالم بعائلة مؤلفة من أحد عشر ولدًا، وكان جاشوا ثالث أولاد هذا المعلم الفقير، خرج إلى نور الحياة فى السادس عشر من يولية عام ١٧٢٣.

وقد تلقى هذا الصبى تعليمه فى مدرسة أبيه، وحصل على ثقافة رحيبة وإن أعوزها العمق، وجنى معلومات كثيرة، ولكن بتأصيل قليلٍ.

ومنذ صباه شغلته فرشاته، وأصغى إلى هواتفها أكثر مما أصغى إلى الكتاب والقلم، وفيما بعد عندما كبر وشب عن الطوق وقُدِّرَ له أن يكتب ويحاضر عن الفن جاءت لغته مليئة بأخطاء الإملاء والنحو، على أن

الجهل وإن لحق بمعرفته لأصول اللغة إلا أنه لم يمتد إلى الإلمام بالفن، الذى راح يتعمق فى فهم أصوله واستيعاب دروسه منذ أن تعلم القراءة، وقد شق هذا الطريق لنفسه بنفسه، دون عون أو سندٍ من أحد، وانكب يلاحظ الحياة، ويرسم من مناظرها كل ما تقع عليه عيناه النهمة إلى استيعاب الوجود والمعرفة.

فى غرف البيت والمطبخ، فى المدرسة والفصول والشارع، وفى كل مكان، أينما وقعت يده على قلمٍ وقطعة من الورق، مضى يرسم الناس ومظاهر الحياة من حوله ، وفى غمرة الشغف بالخطوط والألوان أهمل دروسه، وانصرف عن المذاكرة، وسرعان ما تبين الأب لخيبة أمله أن ابنه لن يصبح من حملة الشهادات مثله.

وعندما شب الصبى، وجب على الأب أن يفكر فى أن يكفل لابنه حرفةً أو مهنة أو وظيفة تقيم أوده، وتكفل له معيشته، وقد تردد الأب بين اختيار مهنة الرسام التى سوف تسعد الابن، وبين الصيدلة التى سوف تكفل له دخلاً شهريا مضموناً، وتقيه شر غوائل الدهر وتقلباته.

وعندما سئل الصبى الفنان كى يقرر ويختار، أجاب بلا تردد بأنه يفضل أن يكون مصورًا حاذقًا على أن يكون صيدليا غنيا، وإزاء إصرار الابن على اختياره هذا، دبر الأب ستين جنيهًا، كما أسهمت الأخت المتزوجة من المستر جونسون بستين جنيهًا أخرى، ودفع الأب المبلغ كله إلى أشهر مصورى لندن حينذاك، توماس هدسون، وعهد إليه بتعليم ابنه حرفة الرسم.

كان هدسون بارعًا فى رسم الوجوه على القماش، وكان أريب الصنعة،

ولكنه باستثناء ذلك، كان محدود الأفق لا يتمتع بأية موهبة حقيقية، وقد كان يرسم على القماش تلك الوجوه التى تشبه أصحابها تمامًا، ويترك لتلامذته وصبيانه فى المرسم أن يكملوا الرسم من بعده.

وقد خرج رينولدز من تتلمذه على يدى هدسون مدة سنتين بيد مدربة، أثبتت للتاريخ فيما بعد أن التلميذ أفضل من أستاذه، ويفوقه موهبةً.

وهكذا، عاد التلميذ الذى تملأ قلبه ورأسه الأحلام والآمال من لندن إلى بلدته متخذًا له فيها مرسمًا خاصا به، وقد أقبل عليه نفر من الزبائن طالبين منه رسمهم فمكنه ذلك من أن يبدأ بداية مالية موفقة، ولما كان شابا تتدفق الحيوية فى دمائه، فقد طرد عن تصاوير زبائنه مسحة الجمود والموات التى لم يكن هدسون العجوز بقادرٍ أن يتخلص منها، فاكتست شخصيات رينولرز بحيوية جعلتها أليفة محببة إلى القلوب، وعلى سبيل المثال، ففى إحدى لوحاته الباكرة، رسم زبونه يحمل أحد أولاده الصغار جالسًا على ظهره وكتفيه، فبدت الصورة حيَّة تملأ قلب المتطلع إليها دفئًا، وربما دفعت الابتسامة إلى شفتيه أيضًا، وهو يرى كيف كسر الفنان ما بينه وبين الناس من حاجز الكلفة والتصنع، وأودعهم بين أطر لوحاته فى لحظات حياتية بعيدًا عن القولبة والأوضاع المحنطة، وإزاء البهجة التى أخذت تطل من لوحات هذا الفنان الجديد، أقبل الناس على مرسمه يقتنون أعماله، وعندما مات أبوه فى الخامس والعشرين من ديسمبر عام ١٧٤٦ مات قرير العين، مرتاح الضمير، إذ أقر ابنه على رفض الصيدليةِ واختيار الفن صنعةً وسبيل حياة، فقد أخذت الفرشاة والألوان

تدر عليه ذهبًا، يتضاءل إلى جانبه ما كان سوف يجلبه تحضير المراهم والأكاسير، ومزج السوائل والمساحيق فى البواتق والقوارير.

ولنستق من ذلك عبرةً لشبابنا وآبائهم، فعلى الآباء ألاَّ يقفوا مثل الحوائط الصماء عقبة فى سبيل تحقيق المستقبل الذى اختاره الأبناء لأنفسهم.

لوحات مثل القشدة:

تمكن رينولدز أن يكسب مالاً وفيرًا، وكثيرًا من الأصدقاء، ولكن ذلك كان بفضل العمل الشاق كل صباح، وبعد أن يمارس المشى مسافة طويلة، يخلد إلى مرسمه، ويعكف على العمل منذ السابعة صباحًا وإلى وقت متأخر فى المساء. يصور، يدرس، يرسم، يخلط الألوان متوصلاً إلى ألوان جديدة غنية، وعلى الدوام واضعًا نصب عينيه أن يتقن عمله، ويبلغ بفنه إلى مستوى الكمال، وقد التقى رينولدز فى بداية حياته الفنية بمصور يدعى ويليام جاندى كان يقول: إن اللوحة يجب أن تكون مربربة، وعلى غاية من الثراء فى مادتها، حتى تبدو كما لو كانت صنعت من زبد وقشدة، وقد أصغى رينولدز إلى هذه العبارة، وعمد إلى تنفيذها نصا وروحًا، فبدت لوحاته ذات سطح أشبه بالزبد السميك وخليطًا بديعًا من الألوان البيضاء والحمراء والبنية والصفراء والزرقاء، معجونة ببراعة لفتت الأنظار إلى لوحاته وميزتها عن أعمال معاصريه، وقد بدت أيضًا لوحات رينولدز كما لو كانت قد رسمت فى الضوء الرقيق الحانى المتسلل من نافذة مكسوة بزجاج معشّق.

وقد أتيحت له فى بداية حياته أيضًا الفرصة أن يدرس أعمال الأساتذة

الإيطاليين الكبار، فقد انعقدت أواصر الصداقة بينه وبين قائد بحرى يدعى جورج كيبيل أرسل فى مهمة دبلوماسية إلى روما، فدعا صديقه الفنان أن يذهب معه، وأبحرا على سفينة فى ١١ مايو ١٧٤٩ وصور رينولدز لكيبيل أثناء الرحلة لوحة كبيرة، أظهره فيها كمحارب صنديد، يخوض معركة بحرية وعندما استقر برينولدز المقام فى إيطاليا، حيث أقام إلى ١٦ أكتوبر ١٧٥٢، راح يتأمل ويدرس وينقل أعمال المصورين التقليديين الكبار، وعلى الأخص رافيِّل وتينتوريتو وكوريجيو وتيتيان، وقبل هؤلاء جميعًا ميكائيل أنجلو الذى قال عنه «أعتقد أن ميكائيل أنجلو أعلى مقامًا من كل فنانى الدنيا».

وعندما عاد رينولدز إلى إنجلترا من رحلته إلى روما عن طريق باريس استقر به المقام فى لندن حيث افتتح لنفسه مرسمًا، وقرر أن يصور البشر، لا على ما هم عليه، بل على ما يجب أن يكونوا عليه، وفى هذا يقول «مطمحى وواجبى أن أكتشف أوجه الكمال فيمن أرسم».

وقد صار هذا منهجه فى التصوير، فالفن أداة للتجميل، وليس لغير ذلك من أغراض، ولهذا فإن من النقاد ومؤرخى الفن من رأوا فى أعمال رينولدز مجرد نفاق ورياء، وما كان يرى هو فى ذلك أية غضاضة، فلم يكن الفن فى نظره أداة نقد أو إصلاح اجتماعى.

خير وجمال ومثالية:

وقد أصبح مرسم رينولدز مزدحمًا بالزبائن من الصباح الباكر إلى المساء، وفى عام واحدٍ كان يرسم قرابة المائة والخمسين لوحة، ولما صار

مرسمه يضيق بالوافدين، وقد جذبتهم شهرة صاحبه، انتقل فى سن الثلاثين إلى بيت كبير فى شارع جريت نيوبورت ستريت، حيث تدفق إليه سيل من الناس لا ينتهى، كل منهم يطلب لنفسه صورةً من الفنان الذى يعرف كيف يجامل.

ولم يكن هؤلاء على أى حالٍ أناسًا عاديين، بل كان أغلبهم من الطبقة الراقية، ومن ذوى المكانة الاجتماعية المرموقة، وجدير بالذكر أن العصر الذى عاش فيه رينولدز، وهو القرن الثامن عشر قبل أن تتفجر الثورة الفرنسية فى أخرياته كان عصرًا لم تكن الأفكار الديمقراطية قد أطلّت برأسها بعد، ومن ثم لم يكن يشعر رينولدز ولا غيره غضاضة فى أن يسخّر فنه لتلبية رغبات الطبقة الإرستقراطية السائدة، وقد راح رينولدز يرسم أبناء وبنات هذه الطبقة بالبساطة التى رسم بها شحّاذيه، فهو لم يكن يدور بخلده أنه بإبراز وسامتهم فى لوحاته إنما يتملقهم، بل كان شريفًا مع نفسه ومع أداته التعبيرية، كما لم يكن يعرف أنه يحابى بذلك طبقة على أخرى، فلم تكن البورجوازية قد ظهرت فى الأفق بأفكارها الحواذية بعد، إن كل ما كان يراه رينولدز أنه بفنه يجب أن يغلب الجمال على الدمامة، ويبرز مواطن الخير فى الشخصية الإنسانية، مفسحًا المقام الأول للمثالية فى لوحاته. خير، وجمال ومثالية، هذه هى القيم التى ارتبط بها رينولدز، وهو لم يرتبط بها فى فنه فحسب بل وفى سلوك حياته أيضًا، فقد كان شريفًا مع الناس ومع نفسه، مهذبًا، يحترم الغير ويكسو كلامه بمسحة من الأدب والتواضع، ولم يكن مع ذلك يعامل النبلاء، كما لو كانوا أعلى منه مقامًا، بل على قدم المساواة، يقف الناس جميعًا فى نظره، وعلى الرغم من عدم تملقهم، فقد أقبلوا عليه، يرجونه أن يخلد قسماتهم، ومن

أجل ذلك ملئوا جيبه ذهبًا، وتسابقوا على توجيه الدعوات إليه فى حفلاتهم ومجالسهم، وكان يقبل هذه الدعوات عن طيب خاطر، لأنه كان يحب صحبة الناس بصفةٍ عامة، وكان اجتماعيا بطبعه، انتفت عن شخصيته صفات الخجل والانطوائية والخلود إلى العزلة، وهى الصفات التى يتسم بها الفنان غالبًا.

وقد حقق رينولدز نجاحًا اجتماعيا كبيرًا، رغم أن هيئته كانت غير وسيمة بسبب قطعٍ فى شفته العليا حدثت له من جراء إصابة فى حادث، وتنافس أهل الطبقة الراقية على استرضائه وكسب وده، وصار له معارف عديدون، ولكن دون أن يصطفى من هؤلاء الناس المصقولين أصدقاء لصيقين، فقد ظل قلبه مرتبطًا بالفنانين والأدباء من بنى عصره ومجتمعه، مثل جونسون وشيردان وجولد سميث، وكان يتعلم منهم ما لم يتعلمه فى صباه ويزداد بهم ثقافة، فما عاد المصور المشهور بقادر أن يكرس لنفسه وقتًا، يخلد فيه إلى كتاب يقرؤه.

وقد مضى يتسلق مدارج الرقى الاجتماعى والنجاح الفنى إلى أن أسس الاكاديمية الملكية للفنون الجميلة بلندن التى ظل رئيسًا لها مدى الحياة، وقد كانت هذه الأكاديمية نوعًا من المعهد الفنى لتدريس الفنون الجميلة، ونقابة يلتف حولها الفنانون التشكيليون آنذاك، وقد ألَّف رينولدز من واقع محاضراته بالأكاديمية الملكية كتابًا بعنوان «خمس عشرة محاضرة فى الفن». ومنحته جامعة أكسفورد درجة الدكتوراه الفخرية فى أخريات سنواته، وعلى الرغم من النجاح الاجتماعى الكبير الذى حققه رينولدز، فإنه لم يتنكر لرفاقه الأدباء والفنانين، وكان دائب الحرص على

مصالحهم يزود من كان محتاجًا منهم بكل ما يحتاج، وعندما أصدر الشاعر والروائى إليفر جولد سميث قصيدته الطويلة «القرية المهجورة» أهداها لرينولدز قائلاً «لم أهد عملاً من أعمالى لأحدٍ من قبل، سوى مرة واحدة، أهديت فيها كتابًا لأخى الذى كنت متيمًا بحبه، أما وقد مات أخى الآن، فلا يسعنى إلا أن أهدى قصيدتى هذه لرينولدز تقديرًا له، وعرفانًا بجميله» وقد رد عليه رينولدز بأن صوَّر له لوحة شخصية عُدَّت من أفضل ما أبدعه، فقد كانت أكثر واقعية من غيرها، دون أدنى رغبة فى التجميل والتحلية، وفى هذه اللوحة تنضح عينا الشاعر الذى عانى من الفقر والجوع وعثرات الزمن بالطيبة والتسامح والشموخ على كل الصعاب، وقد ظل جولد سميث ورينولدز صديقين حميمين طوال الحياة، (راجع قصيدة «القرية المهجورة» مترجمة فى كتاب الدكتور زاخر ميخائيل عن الشعر الإنجليزى).

وقد كان جولد سميث نموذجًا للناس الذين اتخذهم رينولدز صحابًا له، يمضى معهم وقت فراغه من العمل، يستضيفهم فى بيته، ويخرج معهم فى رحلات شتى، لم يبخل عليهم بالعون لتذليل ما قد يعترضهم من صعاب، واستزاد من خبراتهم وأفكارهم حكمة، وكانت أمسيات الاثنين أمسيات لقاء منتظم، فيما سماه هؤلاء الرفاق «بنادى أمسيات الاثنين». كما أمسك رينولدز بدفة جمعية من صفوة المجتمع ربط بينهم مبادئ أربعة هى الحماس للفن الجيد، والصداقة الطيبة، والحياة الفضلى، ودماثة الخلق وقد صور رينولدز أعضاء هذه الجمعية فى اثنتين من أفضل لوحاته، وقد جمعهم الفنان فى لوحتيه يتناقشون حول أشهر اللوحات، ويفحصون المخطوطات والأوانى والجواهر الثمينة، وقد بدا فى تصوير رينولدز لهؤلاء

الرفاق من ذوى الجباه العالية، وأصالة المحتد والخصال الكريمة، تطبيقٌ جديدٌ لفلسفته الفنية، فقد كان على الدوام يقول عما يصوره من بورتريهات أن هدف الفنان وواجبه هو أن يستجلى كمال أولئك الذين يصورهم.

وقد أخذ رينولدز على عاتقه بالإضافة إلى تنفيذ فلسفته الفنية هذه أن يوفر لرفاقه الفنانين الشبان أفضل تعليم لأصول الفن، حتى يخرجوا إلى المجتمع قادرين على خدمة مجتمعهم، واستجلاء الخصال الحميدة فى شخصياتهم، ومن ثم تسجيلهم فى لوحات تعتبر تحية إلى الجمال والخير معًا، ومن هذا المنطلق أسس رينولدز ورأس طول حياته «الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة» وبفضل هذه المؤسسة، قدر للندن أن تكون لأول مرة فى تاريخها واحدة من العواصم الفنية المعترف بها فى العالم، ونزولاً على مهام منصبه آلى على نفسه أن يقدم سلسلة من المحاضرات بعنوان «تقدم فن التصوير، وأساليبه، ومستقبله» وفى هذه المحاضرات رغم طرافتها وقيمتها النظرية تعارض رينولدز الأستاذ مع رينولدز المصور، فقد كان الأستاذ يتكلم بفخامة، لكن الفنان يصور ببساطة، وعلى أى حال، فقد كان رينولدز المصور يفضل رينولدز المعلم، وقد قدر لمن عمل فى مرسمه أن يستخلص تقنية ممتازة بينما لم يقدر لمن استمع إلى محاضراته إلا أن يحصل على نظريات مبالغ فيها، وقد قال راسكين عن رينولدز إن هذا المصور ولد كى يكون أفضل قدوة للفنان الممارس، أما إذا حاضر فهو يتردى فى أخطاء عديدة.

رجال ونساء:

وتتصف لوحات النساء عند رينولدز بأنها فى مجموعها أثيرية، باردة العواطف وتتجاوز الحدود الضيقة للحس والشهوة، أما لوحات الرجال فهى على أى حال أفضل من لوحات النساء، فعلى الرغم من إضفاء القدر الأكبر من المثالية على معالجة هذه الشخصيات إلا أن الدماء لازالت تتفجر فى عروقها وتنبض بالحياة، ومن نقاد رينولدز من يقول: إنه فهم الرجال، أما النساء فلم يفهمهن، إن لوحاته عن الرجال هى من عمل رجل يجب أن يختلط برفاقه، ويقضى معهم أسعد الأوقات، فى الأكل والشراب والسمر، ولكن لوحاته عن النساء تدل على انه رسمهن كأعزب قليل الدراية بطباع النساء، بل ويتعمد أن يبقى بينه وبينهن مسافة فاصلة.

وعلى الرغم من أن أهل لندن فى تلك الأزمان كانوا يهوون الثرثرة وإطلاق الأراجيف عن سير الناس، إلا أنهم لم يقدموا على المساس بسمعة فنانهم القدير رينولدز، ولكن الأمر لم يخل على أى حال من إشاعتى حب، استخلصها مؤرخو حياة ذلك الفنان من بعض الوقائع المومئة إلى ميل خاص أبداه الفنان لاثنتين من نساء المجتمع اللندنى المعجبات به.

أما إشاعة الحب الأولى، فعن علاقة بينه وبين امرأة حسناء تدعى أنجيلكا كوفمان، كانت فنانة موهوبة أيضا، وشاء حظها العاثر أن تزوجت من خادمها، فسامها بعد ذلك مر العذاب، وعندما استنجدت بمعارفها لتخليصها من هذا النذل الأفاق، تصدى له رينولدز وأسهم فى

تخليصها من براثنه، وربما تناثرت بعض الأقاويل عن عدة لقاءات ومواعيد بينهما فقد كان الحب فى القرن الثامن عشر متحررًا من القيود التى كبلته بها القرون السابقة، ولكن الأمر على ما يبدو لم يتعد ذلك.

أما عن الإشاعة الثانية، فهى تربط بين رينولدز وبين روائية شابة اسمها فانى بورنى، وقد كتب النقاد عن روايتها «انجيلينا» ممتدحين إياها أشد المديح، بل وكتب أحدهم يقول ما من تحفة أدبية تضارع إنجيلينا - تصور أيها القارئ - والآن أين هذه الرواية، وأين القلم الذى دبج صفحاتها؟ فى غياهب النسيان، فما عاد أحد يسمع عن فانى بورنى الروائية ولا عن روايتها «انجيلينا»، وقد سعى أولاد الحلال آنذاك إلى تزويج فانى بورنى من رينولدز ليضيفوا بذلك زيجة موفقة بين الفن والأدب، لكن الاثنين تلاقيا، وتبادلا الابتسام والمجاملات والمديح، ولكن ليس معنى ذلك أن ثمة ما ربط بين قلبيهما، ومهما كان ما أرادت فانى أن تهمس به فى أذن رينولدز، فقد كان ذلك متعذرًا، إذ كان فى الخامسة والخمسين ومصابًا بالصمم، وكى يسمع كلمة كان بحاجة إلى تثبيت بوق فى أذنه، كما كان قد أصيب من قبل بنوبتين من نوبات الشلل النصفى أصابتا وجهه ببعض العوار، أما هى فكانت آنذاك لازالت فى السادسة والعشرين ويضوع منها عطر الشباب.

هذا، وإذا كان رينولدز رجل صالونات ممتاز، إلا أنه لم يكن بحال من الأحوال من المتسللين إلى المخادع تحت جنح الظلام، وربما كان رينولدز سيكون أسعد حالاً لو كان دون جوان، ولكنه لم يكن مع كيوبيد على وفاق.

صراع الألوان:

أصبح الآن رينولدز واحدًا من أغنى أغنياء لندن، وكان يحب أن يستمتع بثروته فانتقل إلى بيت جديد، واشترى عربة ذات جياد مطهمة، وارتدى خدمه ثيابًا موشاة بالفضة، ولكن الثراء والجاه لم يحجبا الحقيقة الجوهرية للفنان الأصيل، لذلك فقد مضى يعتبر نفسه على الدوام فى الفن تلميذًا، يجرب ويختبر ويتعلم كل يوم فى صنعته جديدا، وقد كانت الألوان وانعكاساتها على البشرة والملبس والمكان مجال اختباراته الدائبة، وقد تعلم فى شأنها الكثير إلا أن شيئًا واحدًا ظل نقطة ضعفه فى هذا المقام، إلا أنه لم يستطع رغم كل جهوده أن يتوصل إلى سر ثبات الألوان وعدم تحولها، وعندما كان يصور لوحاته كانت ألوانها قادرة أن تدخل فى مقارنات مع ألوان فنانين سابقين كبار من أمثال فيلا سكويز وتينتوريتو وروبينز، ولكن هذه الألوان اليوم قد بهتت من على أديم كثير من لوحاته، وانطفأ بريقها، وأضحت الوجوه شاحبة وكأنها لموتى ما عادوا من أهل هذه الأرض، وصارت اللوحات التى كانت وضاءة تنضح بالحياة من قبل مجرد تذكارات للوحات كانت ذات يوم جذابة للعين وللقلب معا. على أن هذا لا يصدق على لوحات رينولدز كلها، فمن لوحاته أيضا ما احتفظت بالحياة مؤكدة فى مدى نجاح الفنان الذى صورها فى تركيب المادة اللونية التى استعملها أداة للتعبير.

العصفور المغرد يطير إلى الأبد:

انسابت سنوات الفنان الأخيرة، مثلما انسابت من قبل حياته كلها، بلا أحداث جسام، ولا مشاكل، بل نجاح ولا غير ذلك. منح درجة الدكتوراه من جامعة اكسفورد وأُنعم عليه بدرجة فارس، واختير عمدة لبلدته الصغيرة، وقد كان تكريم أهل بلدته له أكبر ما أدخل السعادة إلى نفسه.

وهكذا نراه فى كهولته، رجلاً مدكوك الجسم، ممتلئًا بالحيوية، ودودًا مع الجميع، وبيته مفتوح على الدوام للصحاب والمعارف، وكانوا من علية القوم، رجال سياسة وفكر وفن ودين وثقافة، يدعو إلى مائدة العشاء سبعة من الضيوف، فيحضر ضعف هذا العدد، فلا يسبب ذلك للثرى الأعزب أى ارتباك أو غضاضة، ويدبر كبير خدامه المكان، فيأكلون ويشربون ويسمرون، والفنان الداعى يجلس وسطهم. يدير نحو هذا أو ذاك بوق السمع، ويبتسم بألفة، حتى لو لم يلتقط الحديث بأكمله، وهكذا أضحى بيت الفنان مزارًا لا يرد صاحبه عن بابه سائلاً، ضيفًا كان أو طالب مصلحة، ولا كلفة مفروضة على مجلس الفنان، الكل يطلب طعامًا وشرابًا، ويدفأ أرجاء البيت بالسمر والضحك. وبألفة وبلا تحفظ كانت زبدة المجتمع اللندنى من لوردات ومحامين وقساوسة وعلماء وموسيقيين ومصورين وشعراء ورجال دولة، يلتقون فى بيت الفنان الذى انحصرت متعته فى أن يحظى، بحب الناس، ويبادلهم حبًا بحب.

على أن صحته بدأت تزايله فى النهاية، وقد جاء الإنذار الأول فى

السادسة والستين من عمره، وعلى وجه التحديد فى يوليه ١٧٨٩ عندما شعر بمتاعب خفيفة فى عينه اليسرى، وبعد أسبوعين بينما كان منكبًا على إنجاز لوحة لإحدى الشخصيات اللندنية أحس بغشاوة تعتم عينه تلك، ولم تمض عشرة أسابيع إلا وكانت عينه اليسرى قد فقدت الإبصار.

ومع ذلك، واصل عمله، منجزًا عددًا من التصاوير التى أخذ على عاتقه إنجازها. وبالأمسيات والليالى مضى الفنان يمارس حياته الاجتماعية، فيلتقى بالرفاق والصحاب ولكن على نحو زاد تحفظًا، وفى أوقات فراغه يركن إلى أنيسه الوفى، وكان بلبلًا مغردًا ألفه إلى الحد الذى كان العصفور إذا سمع صوت صاحبه بادله الحوار مغردًا أغاريد تبدو كما لو كان الكنار الصغير يفهم لغة صاحبه الكهل، وذات يوم طار العصفور المغرد من القفص، وانطلق من النافذة المفتوحة بلا عودة، تنهد رينولدز وهو يتابع بأنظاره المتعبة الكنار الأصغر يخفق بجناحه فوق هامات الشجر مبتعدًا ليختفى فى أجواء السماء الزرقاء المترامية، ثم تمتم قائلًا ها هو شبابى يضيع منى إلى الأبد.

لكنه مضى دؤوبا على عمله وحتى نهاية عام ١٧٩٠ كان لازال منكبًا على لوحاته. وفى يوم من أيام ديسمبر من ذلك العام ألقى محاضرته الأخيرة بالأكاديمية ، واختتم محاضرته هذه بكلمة مديح وثناء على الفنان الذى أحبه طوال عمره، أكثر من أى فنان آخر، قال لتلامذته: أود أن تكون آخر كلمة تنبس بها شفتاى من هذه المنصة اسم الفنان الذى أحببته أكثر من أى فنان آخر، أقصد ميكائيل أنجلو.

وخلال صيف العام التالى ظل قادرًا على أن يمارس رياضة المشى

لمسافات طويلة دون أن ينتابه التعب، إلا أنه فى أكتوبر عانى من ورم عينه التى كانت قد دب فيها العمى.

أضحت النهاية الآن وشيكة، ولن يستغرق إسدال الستار أكثر من بضعة أسابيع وجاء الموت فى مساء ثلاثاء من فبراير ١٧٩٢.

كان ذهن الفنان على أى حال هادئًا حتى النهاية، ذلك لأنه كان يعرف أن فرشاته التى لن يمسكها بعد الآن، قد كفلت له الخلود.